رأي القدس

تطويق الاحتجاجات ضرورة ملحة

■ تواصلت المظاهرات الاحتجاجية ضد اقدام صحف دنماركية ونرويجية على نشر رسوم مسيئة للرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) في مختلف انحاء العالم الاسلامي، ومن المؤكد ان اقدام صحف نمساوية وفرنسية على اعادة نشر هذه الرسوم الكاريكاتورية سيؤدي الى تصعيدها لا ان يخفف من حدتها مثلما يأمل الكثيرون.

اعادة نشر هذه الرسوم، خاصة من قبل مجلة فرنسية اسبوعية باعت اكثر من نصف مليون نسخة من طبعتها الثانية، سيجري تفسيرها من قبل الكثير من المسلمين على انه استفزاز متعمد لمشاعر المسلمين والاصرار على اهانتهم في عقيدتهم ورسولهم الكريم، ودون اي اعتبار لحالة التوتر المتصاعدة حاليا بين الغرب والعالم الاسلامي.

ولا يمكن قبول الاعذار والتوضيحات التي تقدمها هذه المطبوعات تبريرا لاعادة النشر، مثل القول بان هذه الخطوة تأتي في اطار حريات التعبير التي تحترمها الدساتير الغربية وتفتقر اليها معظم الدول العربية والاسلامية.

يوم امس قال الرسام الدنماركي كريستوفر زيلر ان الصحيفة الدنماركية التي نشرت الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول محمد بن عبد الله (ص) رفضت من قبل نشر رسوم للسيد المسيح باعتبارها مسيئة بدرجة لا تسمح بنشرها واضاف «رسوماتي التي لم تغضب بالتأكيد اي مسيحي عرضتها على رئيس تحرير الصحيفة نفسها «يولانديس بوستين» ولكنه رفض نشرها لانه اعتبرها مسيئة للقراء».

ورفض رسوم كاريكاتورية مسيئة او غير مسيئة امر متعارف عليه في كل الصحف، لان كل صحيفة تضع مجموعة من اللوائح والتعليمات التي تحتم على المحررين والرسامين اتباعها وعدم اختراقها، سواء لاسباب قانونية او احتراما للذوق العام.

حرية التعبير في الغرب مصانة دون اي شك، ولكن هذا لا يعني انها حرية مفتوحة ودون اي ضوابط، ولكن يبدو ان البعض في الدول الغربية يفسرها على انها حرية الحاق اكبر قدر من الاساءة بالاسلام والمسلمين، لاسباب عديدة، بعضها عنصري بكل تأكيد.

المسلمون الذين احتجوا في مختلف انحاء العالم الاسلامي لا يريدون مصادرة حرية التعبير في الغرب او اي مكان آخر، وكل ما يريدونه هو احترام مشاعرهم وانبيائهم وعقيدتهم، وعدم الاقدام على اي خطوة من شأنها جرح هذه المشاعر وهذا ليس بمطلب تعجيزي يصعب تحقيقه.

الحكومات الغربية تسعى، ومنذ هجمات الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) الشهيرة، من اجل تعزيز العلاقات مع العالم الاسلامي، ودعم الاسلام المعتدل في مواجهة الاسلام المتطرف، ولكن اقدام بعض الصحف على الاستفزاز بطريقة متعمدة وغير مسؤولة من خلال اعادة نشر هذه الرسوم المسيئة لا يصب في مصلحة هذا التوجه المشروع والمتعقل.

فرنسا خرجت لتوها من محنة مظاهرات الضواحي التخريبية، وبدأت تستوعب حجم الاحباط الذي يعيشه الشبان الفرنسيون من اصول افريقية، ونسبة النصف منهم من المسلمين، وتعمل جاهدة لايجاد الحلول المناسبة لدمج هؤلاء في المجتمع وبطريقة حديثة على قدم المساواة، والتجاوب مع مطالبهم في العدالة في الوظائف واحترام ثقافاتهم واديانهم، واقدام مجلة فرنسية على اعادة نشر الصور المسيئة للتكسب وبيع نسخ اضافية سيعيق جهود الحكومة في هذا الاطار، وربما يؤدي الى نتائج عكسية تماما تلحق ضررا بالامن الوطني الفرنسي والعلاقات مع العالمين العربي والاسلامي.

حرية التعبير

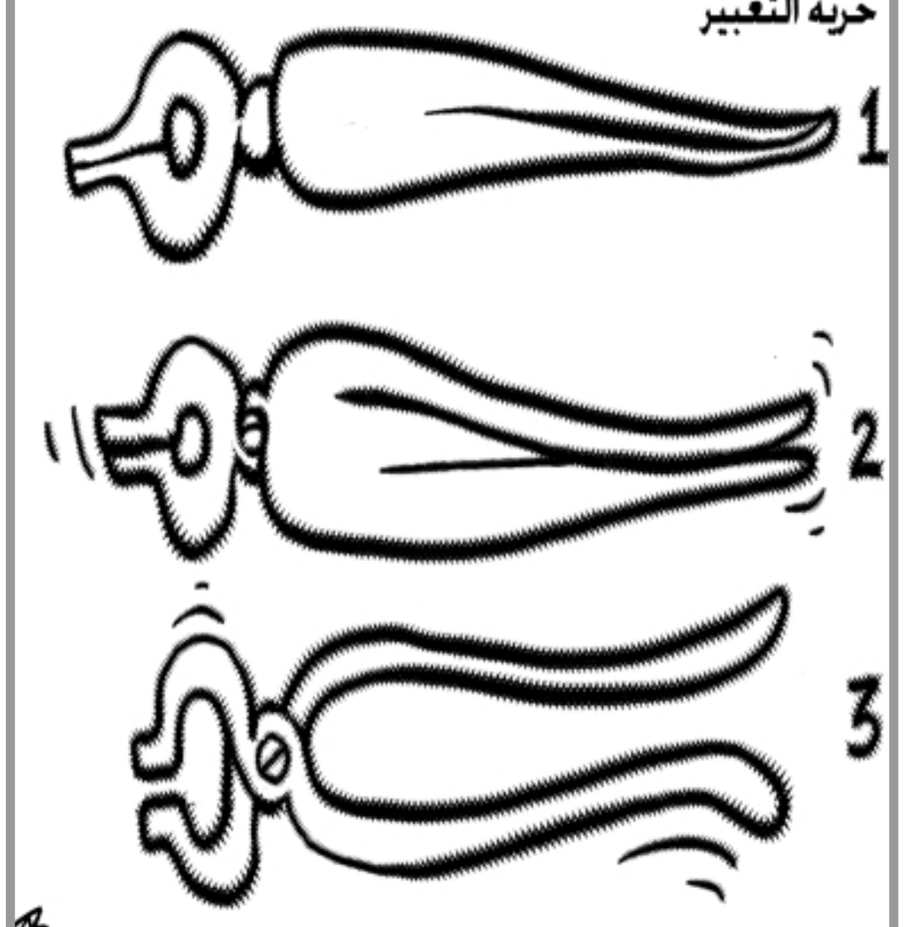

غايات خبيثة وراء الحملة على حماس

زهير اندراوس

■ منذ فوز حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في الانتخابات التشريعية الفلسطينية الأسبوع الماضي تقود الإدارة الأمريكية ودول الاتحاد الأوروبي وبطبيعة الحال الحكومة الإسرائيلية، حملة موتورة لنزع الشرعية عن الانتخابات وعن حماس في محاولة لفرض إملاءات جديدة على الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة، هذا الشعب الذي قال كلمته في صناديق الاقتراع.

هكذا، فجأة ودون سابق انذار، أصبحت الديمقراطية قابلة لأن تتجزأ، وباتت من جديد تفصّل حسب مقاييس غريبة بهدف تنفيذ مآرب سياسية ضيقة. فالرئيس الأمريكي جورج بوش، الذي يتفاخر ويتباهى بالديمقراطية، ويقول بمناسبة أو بغير مناسبة إن دمقرطة دول الشرق الأوسط هي المفتاح السحري لحل قضايا المنطقة، كشر عن أنيابه بعد الإعلان عن نتائج الانتخابات التشريعية، واعلن بصورة واضحة ان إدارته لن تعترف بحكومة فلسطينية تشكلها حماس، مناشدا الرئيس الفلسطيني محمود عباس (أبو مازن) عدم الاستقالة من منصبه. هذا الموقف هو قمة الانتهازية والنفاق، ناهيك عن انه تدخل سافر في شأن داخلي لشعب معين قرر أن يغير قيادته لأسباب عديدة لا نريد في هذا السياق الخوض فيها.

السيد بوش الذي أعلن الحرب على ما يسميه الإرهاب العالمي ادخل العالم برمته الى وضع مأساوي، وتحول من حيث يدري الى اكبر خطر على السلام العالمي. احتل افغانستان وقضى على نظام الطالبان، ومن ثم أرسل مع حليفه توني بلير جيوشا جرّارة الى العراق فاحتل البلاد واسقط نظام الرئيس صدام حسين. قام بجلب هذه الويلات والمآسي على الشعوب في العالم تحت مسميات عديدة، وضرب بقرارات الشرعية الدولية عرض الحائط. والامبريالية الجديدة من انتاج واخراج واشنطن عارضت وما تزال الخيار الديمقراطي للشعوب في أمريكا اللاتينية، التي انتخبت قادة «يغردون خارج السرب» ويعارضون بشكل منهجي سياسات واشنطن العدوانية. فنزويلا وبوليفيا وتشيلي تحولت الى دول خطيرة لأن شعوبها انتخبت بشكل ديمقراطي قيادات شابة لا تنهب ثروات الشعوب ولا تتآمر على مصالحها، وهذا الأمر يتعارض جوهريا مع مفاهيم «الديمقراطية الأمريكية» التي تقول ان من يعارضني ليس ديمقراطيا وبالتالي يصبح عدوا وعلينا العمل بكل ما أوتينا به من مؤامرات خبيثة للإطاحة به وتعيين دمى متحركة مكانه، كما حدث مع السيد حميد كارزاي في أفغانستان.

هذا هو الخطر الذي يتهدد العالم الآن. المحافظون الجدد في أمريكا واليمين المسيحي الرجعي ووكلاؤهم في الشرق والغرب يحاولون فرض أجندة تتماشى وتتساوق مع مصالحهم السياسية والاقتصادية، وهذا الأمر يؤدي بشكل طبيعي الى الصدام بين الشعوب التي تبحث عن حرياتها وبين القوى المتنفذة في العالم التي تعمل بشكل منهجي على تنصيب حكام موالين يناصبون مصالح شعوبهم العداء الشديد.

ويستمر هذا المشهد العبثي في جميع أصقاع العالم، ويحافظ الحكام العرب في حظائر سايكس ـ بيكو (الدول العربية) على الصمت، كما يفعل التلاميذ في الصفوف الابتدائية عندما يدخل المعلم الذي يضرب ويبطش بدون أي رادع. ولكي لا ندخل القارئ في متاهات هو في غنى عنها، نؤكد أننا لا نعلق لا الآمال ولا الأحلام الوردية على النظم الشمولية المتآمرة والمتأمركة في الوطن العربي، فهذه النظم فقدت أي تأييد شعبي لها، وفي أول فرصة سانحة ستعرف الشعوب كيف تنتفض ضد هؤلاء الحكام الذين باتوا عبئا على شعوبهم.

وعود على بدء: العالم الغربي المتحضر يرفض التعامل مع حماس لأنها حسب مفاهيمه، التي لا نوافق عليها، حركة إرهابية. واذا وافقنا مجازا على أن حماس هي حركة إرهابية، فكيف يمكن ان يفسر لنا قادة العالم الديمقراطي ممارسة الإرهاب المأسس الذي تقوده الإمبراطورية الأمريكية في أفغانستان وفي العراق وفي مناطق أخرى من العالم؟ كيف يسمح الجلاد لنفسه بتوزيع شهادات وصكوك براءة على الشعوب التواقة للحرية؟ هناك ألف كيف ولماذا، ولكن على ما يبدو فإن هذا الزمن الرديء استحضر الى قاموس السياسة تعديلات تتناقض مع أبسط قواعد التعامل المتعارف عليها بين بني البشر.

وإذا ما أخذنا كل ما تقدّم في الحسبان تصبح الصورة واضحة جدا: الحملة العالمية ضد حماس هدفها غير المعلن هو تركيع الشعب الفلسطيني وابتزازه لفرض تنازلات جديدة عليه. ومن سخرية القدر أن الدول المانحة التي تهدد بوقف الدعم المالي للسلطة الفلسطينية بسبب مواقف حماس، ستزيد هذه الحركة قوة، وأكثر من ذلك، فإن هذه الخطوة تقود الشعب الفلسطيني الى البحث عن سبل أخرى للعيش بكرامة وعنفوان، والأخطر من ذلك أنها تؤدي الى تنامي الكراهية لكل ما هو غربي، وبالتالي فقد تؤدي إلى ندخل للأسف الشديد في دوامة جديدة من العنف، ليس في فلسطين وإسرائيل فحسب، بل في منطقة الشرق الأوسط عموما.

علاقات المعسكر الغربي بالعالم الإسلامي تزداد تأزماً

د. بشير موسى نافع *

■ خلال أسبوع واحد من نهاية كانون الثاني/ يناير وبداية شباط/ فبراير، تصاعدت تعبيرات الافتراق الغربي ـ الإسلامي كما لم تتصاعد منذ أحداث الحادي عشر من ايلول/ سبتمبر 2001. وقد اتسعت هذه التعبيرات لتشمل كل جوانب الاجتماع الإنساني والعلاقات بين الدول والأمم: السياسية والثقافية والديبلوماسية والاقتصادية.

حركة المقاومة الإسلامية «حماس» تحقق انتصاراً حاسماً في الانتخابات التشريعية الفلسطينية، مستندة إلى برنامج سياسي محدد ومفهوم. وبالرغم من محاولات التفسير والاعتذار المتعددة، فقد كان واضحاً ان الفلسطينيين في الضفة والقطاع اختاروا حماس وهم يدركون عواقب اختيارهم. هذا هو أكثر الشعوب تسييساً في العالم، شعب يتمتع بمستويات تعليم مرتفعة وخبرة لا تباريها خبرة في الشأنين الإقليمي والعالمي. وقد ذهب الفلسطينيون إلى طريق حماس ببصيرة ووعي وسابق تصميم. ولكن رد الفعل الغربي على الاختيار الديمقراطي الفلسطيني كان بائساً، ضيق الأفق، ومتأزماً. بدلاً من ان تقوم الدول الغربية الرئيسية على جانبي الأطلسي بمراجعة السياسات التي دفعت الفلسطينيين إلى هذا الطريق، تصاعدت تصريحات التنديد والتهديد في لندن وباريس وبرلين وبروكسل وواشنطن. قبل عام كامل على انتصار حماس الانتخابي، ذهب الفلسطينيون للتصويت في انتخابات رئاسية حرة، واضعين ثقتهم في الرئيس محمود عباس. وكما ان الفلسطينيين يعرفون معنى منح حماس الأكثرية البرلمانية، فقد كانوا يعرفون معنى تصويتهم لمحمود عباس. الرئيس أبو مازن هو واحد من أكثر القيادات الوطنية وضوحاً وثباتاً، ومنذ مطلع التسعينات على الأقل وهو يعلن معارضته للكفاح المسلح والتزامه القاطع بالتفاوض والسعي إلى التوصل لمساومة تاريخية مع الدولة العبرية. ولكن المديح المتكرر الذي كالته واشنطن ولندن وبروكسل لأبي مازن لم ينعكس على الواقع السياسي وعلى مستقبل القضية الفلسطينية. وسواء على مستوى الاستقلال الوطني، سيادة الفلسطينيين على وطنهم وأرضهم، وحريتهم ومعاشهم، ازدادت الأوضاع سوءا.

ربما كان الفساد الذي ضرب أطنابه في أوساط السلطة الفلسطينية أحد العوامل التي أدت إلى هزيمة فتح الانتخابية، ولكن أحداً لا يجب ان يخطىء الدافع الرئيس وراء الانقلاب السياسي الفلسطيني الكبير. لقد أوصل الفلسطينيون إلى حافة الإبادة الجماعية، بينما الهم الأولي للقوى الغربية تقديم قدر من المساعدات يمنع الأوضاع من الانفجار. باختيارهم لحماس، يعبر الفلسطينيون عن رفضهم المداهنة على فقدان أرضهم وشروط وجودهم الوطني. ولكن العواصم الغربية لا ترغب في رؤية الأمور على حقيقتها، وليس ثمة من دليل على استعدادها لمقابلة الفلسطينيين في منتصف الطريق. ولن يمر وقت طويل قبل ان يشهد الفلسطينيون الحكومات الغربية الرئيسية تتعهد عملية تجويع منظمة لهم، بهدف إجبار حماس على التخلي عن البرنامج الذي انتخبها الشعب على أساسه، أو إسقاط الحكومة التي تقودها.

وفي الوقت نفسه أخذت أصداء الانتهاك الذي قامت به صحيفة دنماركية لحرمة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في التفاعل عبر العالم الإسلامي كله. لقد مضت عدة شهور على نشر الرسوم الدنماركية المسيئة، بذلت خلالها جهود واسعة لمحاصرة الموضوع، سواء من منظمات الجالية الإسلامية في الدانمارك أو من الحكومات العربية والإسلامية أو من الجامعة العربية. ولكن لا هيئة تحرير الصحيفة ولا الحكومة الدنماركية أخذت ردود الفعل الإسلامية مأخذ الجد. رفضت الصحيفة الدنماركية الاعتذار، كما رفضت الحكومة استقبال السفراء العرب والمسلمين في كوبنهاغن والاستماع لشكواهم. باسم حرية الرأي (التي يعرف كل رؤساء التحرير الغربيين أنها ليست بلا حدود ولا ضوابط، لاسيما فيما يتعلق بالمسألة اليهودية) وجهت إهانة بالغة ومتعمدة ومدروسة لمشاعر المسلمين في العالم، وتواطأت الصحافة والحكومات معاً على الاستهانة بحرمات المسلمين ومقدساتهم. وما ان بدأت ردود الفعل الشعبية في العواصم العربية والإسلامية في التبلور، حتى سارعت صحف ومؤسسات إعلامية غربية أخرى إلى التضامن مع الصحيفة الدنماركية بإعادة نشر الرسوم السفيهة والمهينة. بل وتبرعت المستشارة الألمانية بالدعوة إلى مساندة الدنمارك والتضامن معها.

وكما هو الأمر دائماً عندما يستشعر المسلمون إهانة متعمدة لرسولهم، انتفض العالم الإسلامي بالغضب. في الخليج والسعودية، أحرقت البضائع الدنماركية في المخازن، ومن القاهرة إلى أنقرة وإسلام آباد وجاكرتا، سارت مظاهرات الاحتجاج. في دمشق وبيروت، أشعلت النار في مباني السفارات والقنصليات الدنماركية والنرويجية. وفي غزة دمرت المراكز الثقافية التابعة للدول التي شاركت صحافتها في الحملة على النبي الكريم. وإلى جانب بيان الدعوة للاحتجاج الذي أصدره اتحاد علماء المسلمين، فقد سارعت عدة دول عربية إلى استدعاء سفرائها من العاصمة الدنماركية. وبالرغم من ان حكومات أوروبية، مثل الحكومتين البريطانية والفرنسية، شجبت الإهانات التي وجهت للمقدسات الإسلامية وعملت على وضع مسافة بينها وبين الصحف والمؤسسات الإعلامية التي شاركت في الحملة ضد الإسلام والمسلمين، فمن المؤكد ان حلقات هذه القضية من الافتراق الغربي ـ الإسلامي لم تصل إلى نهايتها بعد.

قبل سنوات خمس، أثارت أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عاصفة هائلة من النقاش والجدل. كان السؤال الأهم في الجانب الأمريكي: لماذا يكرهوننا إلى هذا الحد؟ أما الجانب العربي ـ الإسلامي فقد عبر عن نفسه بعدد متداخل من التعبيرات التي شملت الإحساس بالذنب، والرغبة في الاعتذار، والتسويغ، والشماتة. ولكن أغلب من شارك في ذلك الجدل والنقاش، من أكاديميين ومراقبين ورجال دين وسياسة وإعلاميين، اتفق على ان العالم الإسلامي يعيش أزمة متفاقمة مع ذاته والعالم. يتمحور هذا الرأي، الذي كان أبرز المعبرين عنه المؤرخ الأمريكي المعروف برنارد لويس، حول مقولة الشعور الإسلامي الجمعي بالتخلف والهزيمة وفقدان الموقع والدور العالميين، الشعور الذي يحاول المسلمون نكرانه وتجاهله بتحميل الغرب (القوي، المسيطر) مسؤوليته، وتحويله بالتالي إلى عنف أهوج ضد القوى الغربية وإحداث قطيعة مع العالم الحديث. وقد تبلورت أقصى صور الرد على هذه الأزمة الإسلامية في الدعوة إلى إيقاع هزيمة بالغة بالمسلمين، هزيمة تفرض عليهم الاعتراف بحقيقة الوضع الذي يعيشونه وبمسؤوليتهم عن هذا الوضع، تماماً كما أدت هزيمة الحرب العالمية الثانية إلى إحداث تغيير جوهري وشامل في الوعي الجمعي الألماني والياباني، وإلى تغيير في رؤية الألمان واليابانيين لأنفسهم وعلاقاتهم بالعالم. ولا يخفى ان المقصود بالعالم هنا هو بالتحديد الكتلة الأطلسية الغربية، أو المعسكر الرأسمالي الليبرالي.

ثمة أزمة إسلامية بلا شك، وهي أزمة تعود في جذورها إلى نهايات القرن الثامن عشر عندما اكتشف المسلمون فجأة أنهم لم يعودوا قادرين على الدفاع عن بلادهم أمام القوى الإمبريالية الغربية الصاعدة. ومنذ تلك اللحظة الحاسمة والمسلمون يعيشون جدالاً بالغ الحيوية ومحاولة لا تتوقف لتبصر أحوال الذات والعالم، وقراءة دلالات التجربة الإسلامية التاريخية. وليس صحيحاً أن وعي المسلمين بالتراجع وفقدان الموقع والدور قد أدى إلى الشلل الفكري والحضاري والقطيعة مع العالم، ومع العالم الغربي الحديث على وجه الخصوص. الحقيقة ان أمة لم تتفاعل مع الحداثة الغربية كما تفاعل العرب والمسلمون، ثقافة، وصناعة، واستهلاكاً، وتعليماً، ونمط حياة وحكم. لم يقع التفاعل مع الغرب الحديث بدون قدر كبير من الجدل والتدافع، ولكن الناظر إلى أنماط التعليم والفن والأدب ومؤسسات الدولة والقضاء والتسوق في أي مدينة عربية أو إسلامية لا يجد فرقاً جوهرياً واحداً عن نمط حياة ومؤسسات المدينة الأوروبية الغربية. ثمة فروق من نوع آخر، وقلق لم يهدأ في المجتمعات العربية والإسلامية، ولكن الاعتقاد بأن العالم يجب ان يكون صوراً متكررة ومتطابقة من الاجتماع الغربي هو اعتقاد ساذج وسطحي، تكذبه كل لحظة ويوم تجارب التطور والنمو والتحديث المختلفة في أنحاء المعمورة. العلاقة المتفاقمة بين الغرب من جهة (والغرب هنا للتعميم لا التخصيص) والعالمين العربي والإسلامي من جهة أخرى ينبغي ان تبحث من منظار مختلف، من منظار أزمة الغرب نفسه وعجزه عن الاعتراف بشروط العيش المشترك مع شعوب وأمم ما عادت تقبل بالسكوت عن إهدار حقوقها وإطاحة مصالحها وإهانة رموزها.

ولم تتضح أزمة الغرب في فلسطين وما يتعلق بالتصرف الدنماركي البذيء وحسب. قبل سنوات قليلة قامت الولايات المتحدة بغزو غير مبرر وغير قانوني للعراق. وسرعان ما فوجئت إدارة الاحتلال بمقاومة العراقيين واندفاع الآلاف من الشبان العرب للمشاركة في المقاومة دفاعاً عن العراق، وكأن أحداً في العالم الغربي لم يسمع بروابط العروبة والإسلام التي تتجاوز الحدود وهويات الدول الحديثة. وبدلاً من الاعتراف بالخطأ الفادح الذي أسس لغزو العراق والاعتذار للشعب العراقي عن الدمار الذي أصاب بلاده، أطلق خطاب دعائي للربط بين العراق والإرهاب وتصوير الموت العراقي اليومي في إطار من تحول ديمقراطي مزعوم. في إيران، وبعد ثماني سنوات طوال من أوهام السقوط الإصلاحي، فوجئت القوى الغربية بفوز شاب بالغ التواضع، والتشدد فيما يتعلق بمصالح بلاده وحقوقها بمقعد الرئاسة. وبدلاً من الاعتراف بإرادة الشعب الإيراني، وبالعمل على التوصل إلى تفاهم عادل ومنطقي يستجيب لطموحات الإيرانيين في اكتساب المعرفة النووية السلمية ويؤمن مصالح العالم والإقليم في الوقت نفسه، تدفع الدول الغربية الملف النووي الإيراني إلى الانفجار والحرب المدمرة. وبالرغم من التعقيد الذي يحيط بالمسألة اللبنانية ـ السورية، فإن أحداً في سورية والعالم العربي لا يشك في ان هدف المجموعة الغربية هو استغلال مسألة اغتيال الرئيس الحريري لإهانة سورية وتحطيم نظامها السياسي وتمزيق وحدة الشعب السوري.

في أغلب مواقع الخلاف والصدام، تستند المطالب العربية الإسلامية إلى منطق قوي وحقوق لا جدال فيها، بل وتعكس عقلانية تفاوضية تساومية. منذ سنوات طوال قبل الفلسطينيون بأدنى مما تقره لهم الشرعية الدولية. وما يطالب به المتظاهرون في شوارع المدن العربية والإسلامية ليس أكثر من اعتذار واضح وصادق عن الإهانة التي وجهت للنبي الكريم. في العراق، كل ما يسعى إليه المقاومون العراقيون هو جدولة انسحاب القوى التي احتلت بلادهم بلا وجه حق. أما الإيرانيون فقد قدموا ما يكفي من الأدلة على ترحيبهم بمراقبة دائمة لأبحاثهم النووية، التي تكفلها لهم كل الاتفاقات الدولية المتعلقة بالنشاط النووي. ولكن القوى الغربية لا تقبل بأقل من الاستسلام الكامل لمطالبها وشروطها. فمن هو إذن الذي يعيش أزمة في علاقته بالآخر؟

* كاتب وباحث عربي في التاريخ الحديث

النظام السوري امام منعطف خطير!

ميشيل كيلو *

ـ يبدو أن التيارات السياسية القومية والإسلامية قررت مؤخرا اعتماد فهم مشترك يضع السلطة/ الدولة في مركز العالم، ويربط بها كل ما يحدث أو يمكن أن يحدث في المجتمعات. لذلك، عندما تنشر جريدة ما رسما كاريكاتوريا ما، فإن العقل الإسلامو ـ قومي لا يعتبره أمرا يخص كاتبه أو الصحيفة التي نشرته، ويرى فيه مسألة تتصل بدولة الشخص أو الصحيفة، التي يجب تعتذر عن ما قد يثير الاستياء أو يكون مزعجا، فإن رفضت الاعتذار، كان من الضروري نقل المعركة ضدها إلى مرحلة تالية هي مرحلة العنف، باعتبار أن ما يجب الاعتذار عنه يتخطى أي شخص وينضوي في الحرب بين الأديان والحضارات، المتعادية بسبب استنادها إلى أديان يكن بعضها العداء لبعضها الآخر. هذا العقل لا يعرف مبدأ وجود الإنسان ككائن حر، لأنه يجهل ويرفض مبدأ الحرية بذاته، لذلك يرى بعض الناطقين باسمه في حقوق الإنسان والمواطن بدعة صهيونية تهدد ديننا وتاليا هويتنا، وتوهمنا أن الواحد منا بحاجة إلى أي شيء آخر غير الإيمان: مادة حياته ومبرر وجوده.

في هذا المنطق، تكون الدنمارك (الدولة والشعب والمجتمع والبلد) هي التي نشرت صورا مسيئة إلى الرسول الكريم (ص)، وتنتفي مسؤولية الشخص الذي رسمها والصحيفة التي عممتها. ولا مفر من أن تعتذر الدنمارك (الدولة والشعب والمجتمع والدولة)، لأن اعتذار الكاتب والصحيفة لا يكفي لأنه لا قيمة له. في بلداننا، حيث يتبع كل شيء السلطة أو يخضع لها، ولا يوجد في المجال العام شيء غيرها، هذا التصور صحيح إلى حد بعيد. أما في البلدان، التي تقول أوساط إسلامية معينة إنها مسيحية وطرف في حرب ضد الإسلام، فهو ليس صحيحا على الإطلاق، بالنظر إلى أن دولها وصلت إلى ما هي عليه عبر حرب شعواء ضد الكنيسة دامت خمسة قرون ونيف، انتهت بتحطيمها وتحجيم دور الدين في الحياة العامة وفصله عن الدولة، وشهدت أنواعا شتى من صور العداء للكنيسة ولرموزها المقدسة، وكتابة انتشار ملايين المقالات والأغاني والأفلام المسيئة للمسيح والساخرة منه. ولعل المسلمين الذين انخرطوا في الحرب الراهنة ومن يتلاعبون بهم في الصف القومي لم يلاحظوا ما كتبته إحدى الصحف الفرنسية حول حقها في رسم صور كاريكاتورية عن الله (عز وجل)، أو أنهم لاحظوا الكلام وتجاهلوا معناه، لكونه ينقض أطروحتهم حول مسؤولية الدولة في الغرب عن الصحافة، ويؤكد أنها لا تستطيع أن تكون طرفا في أية حرب دينية لكونها دولة غير دينية، تعبر في آرائها ومواقفها عن المصالح ولا تعبر عن قيم دينية، وخاصة قيم الدين المسيحي: الذي قاتلته وحررت نفسها منه.

ـ نشرت الصور المسيئة في شهر أيلول (سبتمبر) الماضي، قبل نيف وخمسة أشهر، لكن أحدا لم يحولها في حينه إلى مادة حرب أديان وحضارات. فهل كان الوقت المنصرم ضروريا لتعبئة القوى، أم أن المسلمين تجاهلوا الأمر آنذاك واعتقدوا أنه يخص رساما بعينه وصحيفة معينة؟ ما الذي أجج المشاعر ودفع الأمور إلى التصعيد الراهن، الذي حولته حرائق السفارات والقنصليات في سورية ـ العلمانية وغير الدينية، كما يقال لنا على الدوام! ـ ولبنان قبل غيرهما من بلدان العالمين العربي والإسلامي إلى قضية ذات أبعاد داخلية وخارجية خطيرة، يرجح أن تتفاقم وتشتد على أكثر من صعيد ولفترة زمنية غير قصيرة؟. هل حدثت الحرائق لأن قوات الأمن السوري ضعيفة، أم لأن المتظاهرين نجحوا في تعبئة آلاف الأشخاص دون معرفتها، فحدث ما حدث قبل أن تتمكن من لملمة الأمور واستعادة زمامها، أم لأن الإيمان أقوى في سورية منه في أي بلد إسلامي وعربي آخر؟

ثمة سياق سياسي قد تساعدنا معرفته على تفسير الوقائع، تبلور منذ أيلول الماضي، بعد نشر الرسوم المسيئة للنبي الكريم (ص)، التي ليست الصور الأولى التي تهين النبي، إلا إذا تجاهلنا الصور الإسرائيلية، التي ظهرت العام الماضي وعرضت الرسول في شكل مهين إلى أبعد حد وكتبت اسمه على جسد الحيوان الذي يمقته المسلمون أكثر من أي حيوان آخر، لكن أحدا لم يجرؤ في العالم العربي، وفي سورية خاصة، على الوقوف عندها وتحويلها إلى أزمة متصاعدة وتعبئة عوام وحرق سفارات وقنصليات وحرب أديان وحضارات! تجاهل العالم الإسلامي الصور الدنماركية أول الأمر، لكن هناك من أيقظه بعد خمسة أشهر وأجج مشاعره وحرضه على الاحتجاج بالطريقة التي رأيناها في شوارع دمشق وبيروت، وبدأت تنتشر في بلدان إسلامية أخرى، كمعركة داخلية الأبعاد والمنطويات، ذات بواعث وأهداف خارجية، تأخذ في الحقبة الراهنة صورة صراع على الشارع، وستأخذ في الحقبة المقبلة صورة صراع مباشر على السلطة ستنطلق من الاستيلاء على العامة والنجاح في تعبئتهم.

هذا السياق يجسده تشكل محور دمشق ـ طهران، وبروز الإسلاميين في مصر، وانتصار حماس في فلسطين، وغلبة الطابع الإسلامي على المقاومة في العراق، وبروز دور حزب الله كقوة كبح واحتواء للمجتمع اللبناني، وأخيرا، تبلور سعي مكثف شهدته الأشهر الأخيرة لدى النظام السوري يجعل الإسلام مصدر شرعيته، اعتقادا منه بأن تحالفه مع إيران وربط مصيره بنظامها وبصعود تيارها الإسلامي يمده برد ملائم على سياسة واشنطن وباريس، التي خططت لإنهاء دوره الإقليمي وأنهت وجوده العسكري في لبنان، ويتصرف وكأن التحالف مع دولة إسلامية يعطيه القدرة، التي ضيعتها أيديولوجيته القومية ـ الاشتراكية المفلسة، على أخذ مواقف تعبوية شعبوية صارت أمرا حتميا بالنسبة إليه، بعد أن رفض طيلة السنوات الخمس الماضية عروض المعارضة الديمقراطية بجعل الإصلاح السياسي والمصالحة الوطنية منبع شرعية بديلة له.

يعني هذا، باختصار شديد، أن السوريين سيتعاملون من الآن فصاعدا مع نظام سيختلف خطابه أكثر فأكثر عن خطاب النظام الذي عرفوه طيلة نيف وأربعين عاما، سيتبنى أنماط سلوك غير تلك التي خبروها خلال الحقبة السابقة، القومية، وأنه سياساته لن تقوم بعد اليوم على أولوية دور الصفقات الخارجية في إنتاج توازن النظام واستقراره الداخليين، بل ستعطي الأولوية للمواجهات مع الخارج، رغم أن هذه ستضعفه أكثر فأكثر وستحوله إلى ورقة في يد إيران، التي يديرها رجال دين دأبوا على عقد صفقات على حساب جيرانهم، وتزداد حاجتهم إلى أوراق إضافية تعزز قدرتهم على عقد صفقة تاريخية مع الخارج، تقنعه بقبول دورها كقوة إقليمية عظمى ومسيطرة، يستند دورها الجديد إلى إسلامها التعبوي ـ الشعبوي وقنبلتها النووية! لا داعي للقول إن الشرعية الجهادية ستحول النظام السوري إلى حاضنة للإسلاميين الجهاديين في المشرق العربي، الذين أكدت معركة الدنمارك وجودهم القوي في الأقسام الأكثر تخلفا ورجعية من العامة، وأظهرت كم سيكون دورهم مزدوجا، كقوة ضغط على نظام ليس في الحقيقة دينيا، وكداعم له تتطلب الظروف معاونته، ريثما ينضج بديله الإسلامي. يقال إن النظام استخدم الإسلاميين كي يبعث برسائل إلى العالم تحذره من بدائله، وهذا صحيح، لكن العالم لم يعد راغبا في تلقي رسائل منه، مهما كان نوعها، وقد دفعه دفعا إلى مواجهة حاسمة، يبدو أنه قبل الانخراط فيها، بمعونة بلد يعرف كيف يفيد من أزمات جيرانه هو إيران.

ـ ليس التحول الراهن علامة نجاح وهو لن يخرج النظام من مأزقه بل سيفاقم أزماته، وهو لعب خطير مع قوى دينية يمكنها صعودها السريع من أن تتعلم بسرعة أصول الصراع ضد نظم غير إسلامية قوية ـ أنظر تجربة حماس في فلسطين ـ بينما يمدها إفلاس النظام بالمادة البشرية، التي أثبتت قدرتها في العراق على تعلم الأساليب وامتلاك الوسائل اللازمة لضرب أفضل جيوش العالم تسليحا وتدريبا، خاصة وأن انضواء النظام في حاضنة إسلامية سيعطيها هوامش مناورة وحرية عمل لم يسبق لها أن تمتعت بها، وسيرشحها لأن تكون البديل لواقع ينهار، لن ينقذه الإسلام الأصولي، لأنه لا مصلحة له في إنقاذه، وإن لعب ورقته وعقد صفقات على حسابه.

تقف سورية أمام تحول خطير، سيفتح أبواب جهنم عليها وعلى المنطقة وشعوبها، مع أنه كان بوسع قيادته قبول بدائل آمنة، عرضتها عليها معارضة وطنية وديموقراطية تريد بداية جديدة تنطلق من مصالحة وطنية لها، كسلطة، الدور الرئيسي فيها. هل سيكون بوسع النظام السوري ترويض وامتطاء النمر الهائج، لمجرد أنه أوهم نفسه بأنه مجرد هر أليف؟

* كاتب وسياسي من سورية

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم

الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741ـ0208 (6 خطوط)ـ
فاكس: 8902 741ـ0208 أو 7637 748ـ0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف: 5337920 فاكس: 5337928 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) **Fax:** 0208-741 8902 / 748 7637
email: ***alquds@alquds.co.uk*** * *Internet:* ***www.alquds.co.uk***
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel: (9626) 5337920 **Fax:** 5337928
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN